الروائي الجزائري واسيني الأعرج: لا أعاني من "فوبيا العدو" ومحمود درويش كان يستحق "نوبل"

حاورته بديعة زيدان

"الروائي لا يكتب إلا نفسه، ولكن يجب أن أتوقف عند كلمة نفسه، فالكاتب عبارة عن حوصلة، وتحديداً كاتب الرواية، ففي الرواية عالم متسع .. الكاتب يكتب عن هذه الذات التي هي عبارة عن حوصلة تاريخية واجتماعية وثقافية وحضارية لأنها تتحول إلى ذات جمعية تخرج عن كونها مسألة تهم الشخص نفسه، ولو أن التصاقها بالشخص مسألة لا يمكن نكرانها، فالكثير من الروايات التي نقرأها وقرأناها مثال مدام بوفاري تعبر عن ذات أقرب إلى رواية بلوفير حول علاقته بالمرأة وتصور المرأة وتصور المجتمع من خلال حياة موازية لحياته، ولكن في الوقت نفسه تصبح مدام بوفاري أيقونة اجتماعية داخل مجتمع برجوازي آيل إلى الزوال، أو آيل إلى مجتمع قابل للتفتت فإذن خرج الكاتب عن ما هو ذاتي إلى ما هو جماعي أكثر" .. بهذه العبارات فضل الروائي الجزائري الكبير واسيني الأعرج البدء، ففي البدء كانت الرواية، كما هي المحور والخاتمة .. معه كان الحوار التالي:

• تشتهر بأنك ممن يغوصون في أعماق التاريخ، حتى بت من أعلام "الرواية التاريخية" إن جاز التعبير .. كيف تمكنت في كتاباتك الروائية والإبداعية عموماً من الإفلات من الوقوع في فخ التأريخ؟

الرواية عالم، وهذا العالم يمس كل ما تنجزه البشرية من قيم نفسية واجتماعية وتاريخية، ولكن السؤال الذي يعيد نفسه هو هل يعيد الكاتب إنتاج التاريخ؟ .. في هذه الحالة سيجد الكاتب نفسه في وضعية اقل من المؤرخ، لأن المؤرخ يمتلك أدوات علمية تؤهله لذلك، أمّا الكاتب عندما يكتب يجد نفسه

خارج هذه الأدوات العلمية، ولو أنهما يتعاملان مع نفس الحقيقة العلمية التاريخية الموضوعية.

أفرق بين تاريخ الشخصية وبين التاريخ المرتبط بالأحداث والوقائع، فعندما يتعلق الموضوع بتاريخ الشخصية، عليك أن تكون حذراً، فعندما كتبت رواية "الأمير" حول الأمير عبد القادر، كنت حذراً جداً، لأن في تاريخ الشخصية ثمة جوهر ما، وهذا الجوهر يتحدد بالمسار العام للشخصية، ويتحدد أيضاً بحياته ووفاته، والمعارك التي خاضها... الخ

أرى انني غير قادر على الاجتهاد في هذه الجوانب فهي ثوابت في الشخصية، وثانيا أستطيع أن اشتغل في الشخصية من خلال الجوانب البيضاء، وهي الزوايا التي لا يستطيع قولها المؤرخ مثل تناولي لحياة عبد القادر مع زوجته، فالتاريخ لم يهتم بهذا الجانب، وهنا ياتي دور الروائي، فأنسنة البطل هو ما يجعل من الشخصية التاريخية شخصية روائية.. أحيانا التاريخ يعبر على فترة زمنية طويلة بجملة واحدة، وبالتالي يكون دور الروائي كبيراً، حيث ان هناك مساحات شاسعة من التاريخ مغيبة.

لو اخذنا، على سبيل المثال، مذبحة دير ياسين، فهناك جوانب معينة مثل طريقة دخول الإسرائيليين وكيف نظموا هذه المذبحة وعدد الشهداء وتاريخ المذبحة هذا كله لا أستطيع أن أغير فيه، ولكني أستطيع خلق أسرة بكاملها وهذا غير موجود في التاريخ، فهذه المساحة من اختصاص الروائي.

مغرب ومشرق

• الادب المغاربي بشكل عام بعيد عن المشرق أو ذائقة المشرقيين العرب الى حد كبير، لكن من الملاحظ اختراق واسيني الاعرج للشرق العربي والمشرقيين من القراء ؟

اولا يجب أن نتفق أن هناك مشكلة قديمة تتعلق بالاستعمار، الذي فصلنا عن المشرق، الذي الأصل به هو بلاد الشام، ومصر التي تعتبر معبراً بين المشرق والمغرب، اما في العمل الادبي فتعتبر مصر هي المركز، فمن يريد العبور الى المشرق يجب ان يمر بمصر، فالكاتب والفنان وغيره يجب عليه ان يمر بمصر حتى يصل الى الشهرة .. لا يعترف بك في وطنك الا اذا دخلت مصر، ونجحت فيها، مثلما حصل مع المطربة وردة الجزائرية.

كل البرامج الثقافية في المدرسة تعلمنا حنا مينا وتعلمنا الرزاز وغسان كنفاني، فكتاب الأدب العربي في منهاج الجزائر يعرفنا بالأدباء العرب، ولكن هل المناهج في المشرق تعرف الطلاب بالأدباء المغاربيين؟ الجواب لا، وبالتالي يصبح الأدباء الكتاب المغاربيين مغيبين عن المشرق.

ثم جاء الجيل الذي عقب الاستقلال الذي اهتم بوصول كتابه الى المشرق، وهنا برزت الضرورة للبدء في التفكير بكيفية الخروج من الدائرة الضيقة، وبالتالي اتجه عدد منهم الى بيروت، حيث اصبحت بيروت حلقة مهمة للوصول للشرق، فأنا واحلام مستغانمي نشرنا في دار الآداب البيروتية.

أنا ايضا أقمت عشر سنوات في سوريا، وهذه الاقامة ساعدتني كثيرا باختراق بلاد الشام، وبالتالي لم أعاني من الوصول إلى المشرق أو المغرب، وخاصة أن دار الآداب دار نشر كبيرة ومهمة على المستوى العربي، وأعتقد أن أهمية الموضوعات التي تتناولها في كتاباتي، والتي تهم الناس وتجذبهم، كانت من الاسباب التي ساعدت في وصولي ايضا إلى المشرق.

الروائيون الشباب

• ما رأيك بالجيل الشاب من الروائيين العرب وإبداعاتهم؟

انا سعيد بالجيل الجديد، ولكن ليس بشكل مطلق، ومع ذلك يمكنني القول بأن هناك ديناميكية عربية في الجيل الجديد سواء ذكوراً او إناثاً، وهذا الجيل يتمتع بجرأة كبيرة في التعامل مع التاريخ، فمثلا الثورة المهدية التي تناولها السوداني حمور زيادة وكان قوياً وشجاعاً وجريئاً في تناوله لهذه الحقبة الزمنية، وبالتالي هذا جيل ليس بسيطا، ايضا الكويتي سعود السنعوسي اقتحم موضوعات تكاد تكون ممنوعة، وسمير قاسمي في الجزائر وهو من الكتاب المميزين، حيث اعاد النظر في البنية الروائية نفسها بخلق علاقة مع النص الروائي غير النص التقليدي في بنيته وجوهره.

برأيي يجب ان يدعم هذا الجيل، وهنا لا يمكن إغفال دور الجوائز الأدبية العربية، التي لعبت دوراً مهماً، ليست في جانبها المادي، بل في كونها كشفت هذه المواهب الأدبية، وجعلتها مرئية، فواحد مثل حمور زيادة لولا مروره من خلال البوكر بعد فوزه بجائزة نجيب محفوظ، لربما ما ظهرت موهبته للناس، وكذلك ايضا الفلسطيني عاطف أبو سيف، فهو سبق ونشر العديد من الروايات، ولم ينتبه أحد لها، ولكن من خلال البوكر (الجائزة العالمية للرواية العربية)، التفت الناس لروايته الحالية "حياة معلقة"، ورواياته السابقة أيضا .

"البست سيلر"

• ما رأيك كروائي مخضرم بظاهرة الـ"بست سيلر"؟

للأسف بات من يملك مبلغاً من المال يستطيع بسهولة طباعة عمل أدبي مهما كان مستواه، ففي

فرنسا صدرت العام الماضي ٧٠٠ رواية لم تلق نصيبها في الرواج، ولم يبق منها سوى عدد قليل حوالي العشرين فالنصوص الكبيرة تفرض نفسها، اما بالنسبة لظاهرة "البست سيلر" فلا علاقة لها بالجودة مطلقا، فهمي ظاهرة إعلامية اكثر منها ظاهرة تتعلق بجودة الرواية أو العمل الأدبي، فتجد القوة الجاذبة في الإعلام وما يتعلق بالسوق، وهي في العادة تتماشى مع الذائقة المهيمنة، والتي ليس بالضرورة ان تكون هي الذائقة الصحيحة.

• أين يرى واسيني الاعرج الرواية العربية عالميا، فبعد نجيب محفوظ لم يحصل أي كاتب عربي على نوبل؟ نحن أهل الشعر ولم نكن أهل الرواية أو من أهلها؟

كنا أهل الشعر ولم نعد كذلك سواء من حيث الكم أو النوع، فمثلا لا يوجد اليوم شاعر بموازاة الروائيين ثقلا ومعرفة، فالرواية عوضت نسبيا نقص الشعر حاليا.

العالمية صناعة .. نجيب محفوظ له قيمته الكبيرة ويستحق جائزة نوبل، وهناك عرب آخرون قبله استحقوها، ولكني افترض لو كان لنجيب محفوظ رؤية مخالفة وجذرية ضد الاتفاقيات مع اسرائيل لربما ما كان ليحصل على نوبل .. لو وقف موقفا صارما كأي فنان أو كاتب آخر وقال أنا ضد الاتفاق وضد اسرائيل، لربما لم تكن "نوبل" من نصيبه".

طبعا هذا لا يطعن في قيمته الأدبية، فهو أديب كبير، لكن هناك لمسة سياسية متخفية أحيانا ومفضوحة أحياناً أخرى لوصول هذه الكتابات لنوبل... لا أعاني من "فوبيا العدو"، لكن هناك أدباء من دول أخرى يستحقون الفوز بنوبل وغيرها، وأبرزهم الشاعر الكبير الراحل محمود درويش، والذي لم يحصل عليها، مع أنه قامة شعرية وإنسانية عالية، حيث أن نظامه الشعري خرج من نطاق كونه فلسطينياً إلى أن أصبح عالمياً، وكان يصل إلى المنافسة على نوبل لكنه لم يفز، وكذلك آسيا جبار الجزائرية التي وصلت أكثر من مرة للمنافسة على نوبل ولم تفز في أي منها، ونجد أن الذي فاز لا يساوي الكثير أمام أهرامنا العربية في الرواية والشعر، والأدب عموماً.

سيرة ذاتية

• وماذا عن سيرة المشتهى، رواتك السيرية الأخيرة؟

من الصعب على الكاتب، بل من الصعب جدّاً عليه كتابة سيرته الذاتية، لأننا في الوطن العربي جبناء؛ فالسيرة الذاتية بوح صادق قد يتحدث خلالها الكاتب عن علاقته مع أمه أو أبيه أو أخته أو آخرين. كثير من الكتاب يجبنون عن مجرد التفكير بالكتابة عن أنفسهم، خاصة أن "بعبع" الوضع

الاجتماعي قد يلاحقهم بعد ذلك، وهذا أمر أفهمه.

وأنا أكتب هذه السيرة واجهتني أسئلة كثيرة، على رأسها "إلى أي مدى يستطيع الكاتب أن يقول سيرته الذاتية؟ وإلى أي مدى يستطيع أن يتكلم عن حميمياته الخاصة، خاصة وأن هذه الحميميات ليست ملكاً للكاتب وحده، لاسيما مع وجود مؤسسات اجتماعية وعشائرية ودينية قامعة تمنع أن يكون الكاتب صريحاً في هذا الاتجاه". ومن ناحية أخلاقية أيضاً، برز سؤال حيوي مفاده "هل للكاتب الحق في الحديث عن تجربة حيميمة عاشها ذات يوم مع أنثى على سبيل المثال باتت لها حياتها الخاصة اليوم؟" ... باعتقادي ليس له هذا الحق، لأن هذه التفاصيل لا تخص الكاتب وحده، وتتعلق بتجربة مشتركة.

حين تكتب سيرة ذاتية، كأن تسير على بيض تخشى أن يتهشم أسفل قدميك ... كي أتفادى ذلك، اخترت خمس شخصيات أساسية، أولها جدي الأندلسي، حيث تقاطعت مع الجد عبر تقنية معقدة عملت على تبسيطها. كل الشخصيات في سيرتي الذاتية ميتة (ليست على قيد الحياة)، وبينها شخصيات نسوية كالجدة والأم والحبيبة، واخترتها ميّتة لأنني قصدت القيام برحلة معراجية لهذه الشخصيات... هي طريقة ليست جديدة عموماً في الكتابة، وأبرز من أتكئ عليها أبو العلاء المعري ودانتي أليغري، لكني اخترت هذه الرحلة المعراجية، وبدأت أجوب، برفقة الشخوص، الأماكن الجغرافية، بعيداً عن نرجسية كاتب السيرة الذاتية، ولذلك سعيت لتحويلها إلى نص يقبله القارئ، ولا يشعر معه أنه نرجسي".

سيرتي ليست سيرة بالمعنى التقليدي، ولكنها تقدّم لأساسيات لعبت دوراً أساسياً في تكويني الشخصي كأديب وإنسان في الدرجة الأولى.

أسئلة لا تنتهي

للحوار مع واسيني الأعرج نكهة خاصة، فالأسئلة لا تنتهي، والوقت معه يمر سريعاً، لكنه محدد في النهاية، فزيارته إلى فلسطين حبلى بالبرامج والفعاليات والزيارات المرتبط بها سلفاً .. كنت أريد أن أسأله كما فعل غيري عن علاقته بفلسطين، لكني اكتفيت بشيء مما كتبه في روايته "سوناتا لأشباح القدس"، وجاء فيها "أكبر محرقة يعيشها المرء هي أن تُسرَقَ منه أرضه، ويرمى على حواف المبهم" .. " القدس خبز الله وماؤه. مدينة تكفي الجميع"، "تعبتُ، وأندم كثيراً على أني لم أبقَ هناك، لا لتحرير الأرض، فهذه مسألة لم تعد واردة، على الأقل بالنسبة إليّ، ولكن للموت فقط، والتمزّق عند بوابات القدس"، عن أي قدس يتحدثون؟ وعن أي ضفة غربية؟ وأيّ غزّة؟ كل يوم نحرم من جزء

من الأرض على مرأى حكام الحروب الأقوياء".

نجح الروائي واسيني الأعرج أن يكسر الحواجز السياسية والعسكرية المفروضة على الشعب الفلسطيني بجولة حملته الى الأراضي المحتلة لمرتين في عامين، وهو الذي كان رفض، قبل سنوات، تلبية دعوة إسرائيل لتكريمه على رواياته، معتبراً ذلك تطبيعاً ثقافيا مع الاحتلال الصهيوني، على عكس زيارة فلسطين التي اعتبرها واجباً على كل مبدع عربي، وخرق للحصار الذي تفرضه سلطات الاحتلال على الشعب الفلسطيني العربي.

من أبرز ما كتب واسيني الأعرج روايات"كتاب الأمير"، و"طوق الياسمين"، و"مضيق المعطوبين"، و"ذاكرة الماء"، و"شرفات بحر الشمال"، و"البيت الأندلسي"، و"سيدة المقام"، و"مملكة الفراشات"، و"رماد الشرق"، ومؤخراً "سيرة المشتهى"، التي أطلق من متحف محمود درويش في رام الله نسختها الخاصة بفلسطين، ومقدماً ريعها لصالح الأسرى في سجون الاحتلال، وهي الرواية التي فازت بالمرتبة الأولى في جائزة "كاتارا" للرواية.